14 me Année No. 662

Lundi —11—8—

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ في مصر والسودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

ب المجلة ومديرها

ں محررها المسئول

حسن الزيات

الإدارة

بشارع السلطان حسين

— عابدين — القاهرة

ون رقم ٤٢٣٩٠

دد ٦٦٢ « القاهرة في يوم الإثنين ٧ ربيع الآخر سنة ١٣٦٥ — ١١ مارس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

جمال الدين الأفغاني (*)

جهاده في سبيل الشورى والحرية

[بمناسبة ذكرى وفاته التاسعة والأربعين]

يوم التاسع من شهر مارس عام ١٨٩٧ قضى السرطان في لخلافة على الحكيم الثائر المصلح السيد محمد جمال الدين الأفغاني، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ومسح عن عيون الشرقيين ا من همود الكرى ، وجلا عن قلوب المسلمين ما غشاها الجهل ، فاطمأن الاستبداد ، وأمن الاستعمار، وظن الذين أوطانهم ليقيموا عروشهم ، والذين يزيفون أديانهم ليملأوا م ، أن الصوت قد خفت ، وأن الشمل قد انطفأ ؛ نسوا أن الرسل يبلغون والله يُثبت ، وأن المصلحين ، والدهر يُنبت ، وأن جمال الدين إنما كان صيحة الحق الهدى انبعثتا في يومها الموعود كما ينفجر المكظوم ، ويحلولك الليل فيُصبح . وهل كانت الثورات طية التي شبها العرابيون ثم المهديون ثم الاتحاديون ثم ن ثم الهاشميون ثم الفهلويون إلا أقباساً من تلك الشعلة التي حملها الأفغاني وتنقل بها في ممالك الشرق ، يحرق ، وينضج ويُحمى ، ويُقبس ويشمل ، وساعده مرفوعة ، وعزيمته ماضية لا تنكل ؟

وسر القوة في هذا الرجل أنه كان صاحب رسالة لا طالب مُلك : هاجم السياسة الإنجليزية في (العروة الوثقى) أعنف الهجوم أيام الثورة المهدية ، فدعى إلى لندن ليلوح له اللورد ساليسبُري بمُلك السودان ليطفئ الثورة ويقترح الإصلاح . فما كان جواب الأفغاني إلا أن قال : « إن السودان لأهله . وهل تملكونه حتى تملكوني عليه ؟! »(1)

وأراده السلطان عبد الحميد على مشيخة الإسلام فأباها وقال : إن وظيفة العالم فيما يزاول من تعليم، وإن رتبته فيما يحسن من علم(2).

أما كيف تهيأت نفسه لرسالة البعث والتجديد على فترة من رسل الهدى وأئمة الإصلاح فجَر فيها الحاكم وكفر المحكوم، فذلك من علم الله الذي يصطفي من يشاء كما يشاء لنصرة حقه وهداية خلقه . وكل ما نظنه معيناً على هذا التهيؤ أنه ولد في بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين، سؤددَ الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية ؛ وأنه درج في بيئة تمتز بطباع البداوة من حرية وحميّة وأريحية وأنفة ؛ وأنه درس فيما بين الثالثة والثامنة عشرة من عمره علوم الدين والدنيا ، وفنون اللسان والعقل ، على منهاج محيط شامل ؛ وأنه حذق في مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية ، وألم بالإنجليزية والروسية ، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب في القديم والحديث ؛ وأنه طوّف ما شاء الله أن يطوّف في أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وانجلترا وفرنسا وروسيا ،

(*) أذيعت في محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية في مساء يوم ...ني .

(1) خاطرات جمال الدين للمخزومي ص ٥٤ .

(2) المصدر نفسه ص ٧٠ .

فازداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب ؛ وأن موقع أفغانستان بين الهند وإيران أمكنه من أن يرى ميادين الاستعمار الدول الذل تتواثب عليها قوى الإنجليز والروس ظاهرة وباطنة ، فهاله منذ شب عدوان الأجنبي على استقلال أمته وحريته

كل أولئك الذى ذكرت من كرم المحتد، وشرف المولد ، وبداوة البيئة ، وعمق الثقافة ، وحذق اللغات ، وإدمان الرحلة ، ومعاناة الاستبداد ، ومكابدة الاستعمار ، لم يخلق وحده الرجل المصلح فى جمال الدين ، وإنما كان مساعداً لسر العبقرية الذى أكنه الله فيه على أن يظهر مهيأ الأسباب مستكمل الوسائل.

* * *

كان رضى الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم ، جرئ الصدر لأنه حر ، ندى الراحة لأنه زاهد ، ذرب اللسان لأنه قرشى ، أبى الضيم لأنه أمير ، حاد الطبع لأنه مرهف ، صريح القول لأنه رجل . ولم يبتغ من وراء هذه الصفات — كما قال — إلا سكينة القلب . وكان يحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول مايعتقد ويفعل مايقول[1] . ومن تمازج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض ، وامتد أمامه الأفق ، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامى كله ، والشرق الإنسانى كله ، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر ، وبالحكومة الدستورية لتقمع شرة المستبد

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى فى سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل شهادة ![2]

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغانى على الهامش يظنون أنه قصر جهده فى تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة ؛ والواقع الذى لا شك فيه أنه فكر ثم قدر ثم دبر ، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم ، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم

تولى الوزارة وهو فى ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم ، فجمع نفسه على الاستقلال ، وأدار أمره على الشورى ، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة ، فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الأمير . وخرج السيد إلى الهند

(١) خاطرات جمال الدين ص ٢١ (٢) المصدر نفسه ص ٢٣

يبتغى السكينة عند تاجر صديق ، فاستقبله الإنجليز على الحدود وأنزلوه بالإكراه ضيفاً على الحكومة . فسألهم الإقامة شهرين ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه ، وإصغاءهم الشديد إليه قصروا هذه المدة وأمروه بالخروج . وكادت الأعصاب الهند المخدرة تثور حين قال لزعماء الهنود وهو راحل :

« وعزة الحق وسر العدل ، لو أن ملايينكم مسخت ذ لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند . ولو انقلبت سلاحف وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع » !

* * *

وفى الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة ، وأ أعيان الدولة على الكرامة . ثم عين عضواً فى مجلس المعارف فرأى فى التعليم رأياً ، وخطب فى الصناعة خطبة ، أحفظا ع أعوان الجهل من رجال العلم، وإخوان الضلال من شيوخ الدين وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة فى نفسه ، فافترى ع الرجل الأباطيل ، وبث حواليه النمائم ، فلم يجد الأفغانى بداً النزوح إلى القاهرة .

وهنا وجد الصدر الأرحب فى رياض باشا ، فتجلت عبقر فى التعليم والتنبيه والتوجيه ؛ وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوها فى البيت وفى القهوة ، فمشا على ضوئها الهادى طلاب العم وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة . ثم اتخذ المحفل الماسونى الذى أنشأه، منارة لهذه الشعلة ، فقسم الإخو العاملين فيه شعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة . فش الحربية تنظر فى ظلامة الضباط المصريين ، وتنذر (ناظر الجهاد أن ينصفهم من الضباط الجراكسة . وشعب الحقانية والما والأشغال تنذر وزراءها أن يساووا المصريين بغيرهم فى الم والرتب . وراع أولى الأمر ما قرأوا فى تقارير الشعب ، ‍ سمعوا من لغط الموظفين ، وما رأوا من قلق المثقفين ، فاستد الخديو توفيق وفاوضه فى ذلك ، فقال له فيما قال : « إن سبي الإصلاح أن يشترك الشعب فى حكم البلاد عن طريق الشورى ثم ازداد جمال الدين إمعاناً فى حملته ، وانقلب الأدب كله أصد لأحاديثه وأبواقاً لدعوته ، حتى انتهى الأمر — بعد جهاد ثم سنوات — إلى أن ضاق الإنجليز بسمة نفوذه ، فزينوا للخد أن يخرجه من مصر فأخرجه